

قراءة في كتاب البطل في الأساطير والأدب لشكري عياد

أد . محمد مكاكي¹

جامعة خميس مليانة

مخبر الدراسات الأدبية والنقدية العامة والمقارنة خميس مليانة

mekaki.2012@gmail.com

أد . يحيى امام سليمان²

قسم اللغة العربية

جامعة بايرو كنو – نيجيريا

suleimany4156@buk.edu.ng

تاريخ الإرسال: 2024/04/23 ؛ تاريخ القبول: 2024/07/15

ملخص البحث:

المبتغى من هذه الصفحات تقديم نظرة موجزة عن كتاب يعتبر باكورة عهد النقد الأسطوري بالنقد العربي المعاصر هو كتاب البطل في الأدب والأساطير، لصاحبه الناقد والمفكر الكبير الدكتور شكري عياد. وجاءت هذه القراءة موجزة تحاول تسليط الضوء على أهم النقاط التي بدت لنا مهمة ومحورية في صلب الكتاب.

مقدمة:

النقد الأسطوري توجه نقدي يقوم على استحضار دور الأساطير في فهم سلوكيات الإنسان المعاصر، وبمعنى آخر يقوم على الاعتقاد بأن الأسطورة لا تزال تقيم بين دواخل الإنسان وتبرر الكثير من سلوكياته النابعة عن توجيه باطني.

ولهذا يكون فهم السلوكيات وطرائق التفكير المتعلقة بالإنسان خاضعا بدرجة كبيرة إلى فهم واكتناه مجموع ما يكتنزه من مصادر أسطورية بداخله، لقد تبين للنقاد الأسطوريين في هذا العصر " أن الإنسان البدائي مازال كامنا في كل منا، وأن مواطن القرن العشرين الذي يذهب طائعا إلى عمله في سيارته كل صباح (...) ثم يهوى نفسه للنوم بمشاهدة التسلية التي تنقلها إلى غرفته، الصناعة الإلكترونية، يعيد في أحلامه كل ليلة خلق الرموز الأولية للأسطورة القديمة». (7)

لقد تضافرت في ظهور هذا المذهب التحليلي النقدي مجموعة من الإنجازات المعرفية، يأتي في مقدمتها ما قدمه "فرويد" في نظرية التحليل النفسي وكذا ما أضافه كارل يونغ بخصوص الأنا الجمعي وقدرة الأسطورة على الإسهام لفهم الذاكرة

الجمعية المترسخة في البنية العميقة للجماعات، ثم إلى ما قدمه علم الاناسة من مفاهيم للنقد الأدبي صارت تستعمل تحت مسمى النقد الأنثروبولوجي، فالنقد الأسطوري اذن جماع توجهين كبيرين اهتم كل منهما بالإبداع الأدبي هما نظرية التحليل النفسي والأنثروبولوجيا.

إن مسعانا في هذه الورقات هو تقديم عمل نقدي عربي يبدو أنه كان أول كتاب يجهر بانتمائه الى جهود النقد الأسطوري، ويحاول تقديمه الى القارئ العربي بطريقة علمية رصينة لا تكتفي باستعراض أفكار زعماء هذا النقد، بل تناقش أفكارهم بندية علمية تتيح الاقتباس من هذه الجهود بقدر ما يتوافق مع قناعات الأنا العربية التي تطافرت في تشكيلها ظروف ومصادر تخالف في الكثير من معطياتها الظروف والمعطيات التي صاحبت نشوء هذه الأفكار في بيئاتها الأصل.

الكتاب الذي نحن بصدد تقديمه هو كتاب **البطل في الأدب والأساطير**، للناقد الكبير شكري محمد عياد، وهو كتاب صدر لأول مرة في وقت مبكر من عمر النقد العربي سنة 1959، وهي فترة كانت السياقات النقدية العربية لا تزال تفتح آفاق

النقاش والجدل حول جدوى المناهج التاريخية والاجتماعية، وهذا ما يعكس وعي ناقدنا الكبير شكري عياد وقدرته على مساهمة ومتابعة ما يطرأ على الساحة النقدية العالمية من جديد.

1. كتاب البطل في الأدب والأساطير: النقد الأسطوري وتأصيل مفهوم البطولة:

يقدم "شكري عياد" دراسة حول نقد الأسطورة، بوصفها مصدرا من مصادر الإبداع إن لم تكن المصدر الأساس له، وذلك عبر مؤلفه (البطل في الأدب والأساطير) [1].

ويفتتح "شكري عياد" كتابه ببيان السبب الذي دعاه إلى تأليفه ، وهو في ما يذكر ملاحظته "عناية عدد من أدبائنا المعاصرين بقصص الأبطال الأقدمين"⁽³⁾، الشيء الذي قاده إلى محاولة الكتابة لـ "إرساء الأساس النقدي لفهم شخصية البطل في الملحمة والقصة الشعبية والمسرحية"⁽⁴⁾، مستعينا بنظرية "في علاقة

¹ شكري عياد، البطل في الأدب والأساطير، ط1، دار المعرفة، القاهرة 1959.

[1] المصدر نفسه، ص: 05.

[2] المصدر نفسه، ص: 05.

الفرد بمجتمعه وعالمه (...) وكانت هذه النظرية تستغل الدراسات النفسية والانتروبولوجية على نحو لا تغني فيه الإشارة إلى مرجع أو مراجع⁽⁵⁾ ، ويذكر "جمال مقابلة " أن "شكري عياد" يستمد نظريته هذه من اجتهادات النقاد الجدد في أوروبا وأمريكا، الذين تابعوا الكلاسيكية في كثير من مواقفهم حتى عدوا من اتجاهاتها، و علمية الرومنسية التي يشير إليها " سانت بيف " الناقد الرومنسي الأكبر الذي يعد مؤسس النقد الأدبي الحديث بمعناه العلمي " ⁽¹⁾

لا يقدم "شكري عياد "تسمية ما للنظرية التي اعتمد عليها إلا نعتة لها بأنها مزيج من الانتروبولوجيا والدراسات النفسية رغم أنه كان يؤسس في مرحلة مبكرة من تاريخ النقد العربي إلى ما صار يعرف بالنقد الأسطوري وهو يتصل – كما يشير صاحب دليل الناقد الأدبي –في جذوره بما كتب في أواخر القرن الميلادي الماضي ، ومطلع هذا القرن حول الأسطورة و علاقتها بالثقافة ومن ذلك ما ذكره الأنثروبولوجي الانجليزي " السير جيمس فريزر "في كتابه " الغصن الذهبي " الذي صدر ما بين 1890 – 1915 وما

⁽¹⁾ المصدر نفسه، ص: 06.

⁽²⁾ شكري عياد، دائرة الإبداع: ص: 28.

تضمنته نظريات عالم النفس السويسري " كارل يونغ " خاصة ما أسماه باللاوعي الجمعي ⁽²⁾، وتجتمع الدراسات على أن اكتمال هذا المنهج كان على يد " نور ثروب فراي " في كتابه الشهير "تشریح النقد " و اجتمعت عنده الإفادة من علم النفس و الأنثروبولوجيا و كذلك بعض التطعيمات الشكلية البنيوية ⁽³⁾.

تتضح الرؤية التاريخية التي يعتمدها "شكري عياد" برفض واضح لكثير من الأصول التي وضعها زعماء النقد الأسطوري، وفي هذا محاولة لإعادة النظر في المنهج الأليق بدراسة الأسطورة وتخليصها مما لا يتناسب مع منطقها وطبيعتها من وجهة نظره، وفي سبيل تحقيقه لهذا المسعى نجده لا يجد حرجا في مناقشة آراء المنظرين الغربيين ونقدها ، والتخير منها بالشيء الذي يحقق له مطلبه من هذه الدراسة .

□ سعد البازعي وميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي: ص: 337 –

339، ويمكن العودة إلى: صبري سالم، المنهج الأسطوري في دراسة الفن القصصي ونقده، مجلة الأقلام، ع: 1211، 1992، ص: 95.

□ سعد البازعي وميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، ص: 338.

قبل أن يفصح "شكري عياد" عن بعض ملامح دراسته، يتعرض بالنقد للمنظرين النفسيين والانثروبولوجيين ، فالفريق الأول قصرُوا دراساتهم للبطولة على الجانب الذاتي فيها أي عند الأبطال، لقد "اعتبرُوا هؤلاء الأبطال تجسيدا للعقد المكبوتة، وبذلك جعلُوا البطل نموذجا للمرض النفسي، كما جعلُوا الفنانين مرضى نفسيين، وربطُوا بين الفنان وبطله، بقدر ما فصلُوا العمل الفني عن بيئته ومجتمعه، ومن هنا كان تفسيرهم للبطولة أوغل في الجانب الذاتي، وبالمقابل كان علماء الأنثروبولوجيا قد "جردُوا البطولة من كل معنى ذاتي ، وأصبح البطل تعبيراً عن الجماعة أو عن وظيفة اجتماعية"².

إن الجديد في هذه الدراسة في نظر "شكري عياد" هو محاولة الانتفاع بثمار الدراسات النفسية والانثروبولوجية التي عمقت فهماً لكل من الجانبين الذاتي والموضوعي في مفهوم البطولة ومحاولة إيجاد العلاقة بين الجانبين في هذا المستوى نفسه من العمق، في ضوء نظرة إلى الفن تختلف عن نظرة أصحاب علم

² شكري عياد، البطل في الأدب والأساطير، ص: 07.

النفس التحليلي[□]، أو لنقل إنها نوع من التكامل بين علم النفس والأنثروبولوجيا والنقد الفني الذي ينظر إلى الفنون الأدبية نظرة جمالية تركز على دعائم مشتركة بين البشر[□].

إن هذا السعي من قبل "شكري عياد" نحو المكاملة بين التوجهات وطيد الصلة برؤيته التأصيلية كما سبق الذكر، ويتضح هنا في اكتشافه عدم اهتمام النقد الأسطوري بشقيه النفسي والانثروبولوجي بالقيم الجمالية التي تعطي الإبداع خاصيته الأساس، ولذلك يركز "شكري عياد" على كون بحثه هذا بحثاً أدبياً بامتياز، يأخذ من هذه العلوم بما يحقق لدراسته الوصول إلى مبتغاهما الجمالي، وفي هذا تحقيق لأولية الموضوع على المنهج، إيماناً منه بأن كل موضوع بحاجة إلى أدواته الخاصة، فلا غنى عن تكامل الأدوات إذا اقتضى الأمر ذلك.

2. منطق الأسطورة وخصوصية المنهج:

في هذا السياق تكون الأسطورة موضوعاً له خصوصيته التي يجب مراعاتها عند إرادة تحليلها، وهذه الخصوصية مرتبطة

³شكري عياد، البطل في الأدب والأساطير، ص: 08.

⁴ المصدر نفسه، ص: 09.

ارتباطا وثيقا بالبيئات البدائية التي أنتجتها، حين كانت الأسطورة دعامة معرفية وعقائدية يستحيل العيش بدونها، إن "الأساطير عند الإنسان البدائي فن وفلسفة وعلم ودين، إنها جماع حكمته ودستور حكمته مصوغين في قالب قصصي عن الخلق والحياة والموت والبعث⁵، وبالتالي تأخذ أهميتها وضرورتها الوجودية من ذلك التوضع الذي كان بالنسبة إلى القدامى بديلا عن العلوم والأديان والقوانين التي نعرفها اليوم.

وهذه الأهمية شكلت في نظر شكري عياد مدخلا للقول بوجوب معاينة الأسطورة وفق هذا المنظور القديم لا بمنظور يراها نوعا من الخرافة واللاعقلانية وهو هنا يعيد تذكير قارئه بوجوب التخلي عن المعايير المسبقة – مثلما فعل في كتابيه السابقين – فتناول الأسطورة يقتضي عدم محاكمتها بأحكامنا المعاصرة وإنما يستوجب قبل ذلك الماما بها في عصورها ومحاولة فهمها على ضوء قيمتها تلك، "فالأسطورة إذا قسناها بحساسيتنا الحديثة بدت قاسية، بل وحشية أحيانا، ولكننا إذا تركنا أنفسنا ننفعل بها دون استئثار هذه الحساسية وجدناها تقع في منطقة من نفوسنا تسبق

⁵شكري عياد، البطل في الأدب والأساطير، ص:63.

الشعور بالقسوة والوحشية⁶، وزيادة على مسألة الحساسية الانسانية، فإن تناول الأسطورة وفق منطق العقل وقوانين العلم سيفضي هو الآخر إلى عزوفنا عنها بدعوى كونها مجرد حديث خرافة⁷، ولكن أعمال منطق الأسطورة ذاته في فهمها سيفضي بنا إلى استشعار قيمتها وقدرتها على إبهارنا بمخالفة المتوقع، وتدعونا إلى استكشاف قوانينها الخاصة التي لا تستند إلى معرفتنا المعاصرة.

إن معارفنا الحالية ستبدو غير قابلة للتأقلم مع منطق الأسطورة الداخلي، ولن تؤدي إلى تقريبها إلينا، ولذلك يرفض "شكري عياد" تفسير "كارل يونغ" لبعض الأساطير اعتمادا على نظرية علمية حديثة، مؤداها حب الإنسان للعدد 4 لأنه عضويا مكون من الكربون وهو رباعي التكافؤ، "وواضح أن هذه النظرة إلى الأساطير تخلعها من محيطها المادي والاجتماعي، وتخضعها لكل ما عسى أن يلحمه الناظر فيها من مشابهة ولو بعيدة لنظريات العلم الحديث، وهي طريقة من النظر لا تنفع الأسطورة ولا تنفع

⁶ ، المصدر نفسه، ص: 82.

⁷ المصدر نفسه، ص: 82.

العلم الحديث⁸، ويتماشى هذا المنظور النقدي الذي يعتمد عليه "شكري عياد" مع المنهج الذي يرتضيه الباحث "فراس السواح" الذي وجدناه يقدم رؤية تتماشى كثيرا مع ما يريده "شكري عياد"، فعنده أن "من الأدوات القوية التي تعيننا على التعامل مع النص الأسطوري المفرد إرجاعه إلى النسق الميثولوجي الذي ينتمي إليه، وذلك لأن هذا النص إنما يكتسب معناه ومغزاه من خلال موقعه في ميثولوجيا الثقافة التي أنتجته، ومن خلال ترابطاته مع الأساطير الأخرى التي تنتظم وإياه في نسق واحد⁹.

إن تخليص الدراسة الأسطورية من النزوع المعياري الذي تستقر عليه بعض الرؤى سيفضي بالباحث إلى استكناه المنطق الذي تحمله بداخلها، وييسر له الوصول إلى وضع تعريف أو لنقل التخير من التعريفات التي وضعت لها تعريفا يعكس حقيقتها من حيث طبيعتها الأولى قبل البحث في مجموع الوظائف التي وجدت

⁸ المصدر نفسه، ص: 83.

⁹ فراس السواح، *الأسطورة والمعنى*، دار علاء الدين للنشر –

دمشق، 2001، ص: 67.

لتأديتها، فتعريفات الأسطورة تتنوع ما بين تعريف يبحث الطبيعية والماهية وتعريفات تبتعد عن ذلك متناولة الوظيفة والنشأة.

فمن حيث الوظيفة تعرف الأسطورة بأنها " تحكي بواسطة أعمال كائنات خارقة كيف ظهرت إلى الوجود حقيقة واقعة"¹⁰، أو أنها "تشرح أصل العالم على أساس كوني ومحلي في ذات الوقت"¹¹، أو تفسر " شعائر الدين والقواعد المتعلقة بالعبادات"¹²، ولكنها من حيث الماهية نوع من القول، وهذا القول كان مصاحبا لما يقام من طقوس تعبدية أو سحرية قديمة¹³، ولما كان انتقال الأساطير معتمدا على الشفاهة كان من الطبيعي أن تنتقل الأجيال الجزء القولي دون ما يصاحبه من أعمال وطقوس، وهذا ما يجعل التعريف الأمثل

¹⁰ فاروق خورشيد، أدب الأسطورة عند العرب، ط1، مكتبة الثقافة

الدينية، القاهرة 2004، ص:38.

¹¹ أنطوني ثورلبي، اللغة والأسطورة، تر: منيرة كروان، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة. 1997، ص:52.

¹² محمد عبد المعيد خان، الأساطير قبل الاسلام، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2005، ص: 18.

¹³ ينظر: محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار

المعارف، القاهرة، ص: 1978، ص: 288.

للأسطورة في نظر "شكري عياد" هو أنها " الجزء القولي المصاحب للطقوس البدائية"¹⁴ ، وهو برأيه التعريف الذي يطابق "ما يقوله كثير من ثقات الباحثين في الأنثروبولوجيا والدراسات القديمة.

إن خلوص "شكري عياد" إلى هذه النتيجة التي يعززها ببيان من يشاركه فيها من ثقات الباحثين بتعبيره يؤكد أن مسعاه التأصيلي هو الذي يحدوه للتخير من التعريفات ومن الرؤى المنهجية مايراه خادما لهذا المسعى المتمثل في ضرورة الوصول إلى مايمكن أن يكون أصلا للأسطورة، أو الأسطورة في جوهرها الأولي، فالمنهجية التاريخية الارتدادية حاضرة بشكل دائم في تفكير "شكري عياد" ، رغم صعوبة التناول ، ولذلك فأهم ميزة للطريقة الطقوسية¹⁵ التي وقع اختياره عليها، أنها تتقي الأصل الأسطوري من الإضافات

¹⁴ شكري عياد، **البطل في الأدب والأساطير**، ص:85.

¹⁵ هي دراسة الأساطير بردها إلى الطقوس التي تقابلها كحكاية، ويقترح "شكري عياد " في حال انقراض الطقوس المصاحبة لبعض الحكايا الأسطورية أن نبحت عما يشابهها من طقوس عند أمم أخرى، واعتماده في السلوك قائم على التشابهات التي وثقها الانثروبولوجيون بين أساطير حضارات مختلفة، ينظر: المصدر نفسه، ص: 88.

الفنية التي أدخلت عليه ، وتتيح له زيادة عن دراسة الأسطورة أن يدرس بعض الأجناس الأدبية التي تولدت عنها .

قائمة المصادر والمراجع :

- شكري عياد، البطل في الأدب والأساطير، ط1، دار المعرفة، القاهرة 1959.
- سعد البازعي وميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي: ص: 337 – 339، ويمكن العودة إلى: صبري سالم، المنهج الأسطوري في دراسة الفن القصصي ونقده، مجلة الأقلام، ع: 1211، 1992.
- فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دار علاء الدين للنشر – دمشق، 2001.
- فاروق خورشيد، أدب الأسطورة عند العرب، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2004.
- أنطوني ثورلي، اللغة والأسطورة، تر: منيرة كروان، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة. 1997.
- محمد عبد المعيد خان، الأساطير قبل الاسلام، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2005.
- محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، القاهرة، 1978.